

الطقوس الفلاحية وإنتاج الفضاء في " الربوة المنسية " لمولود معمري

ط.د.حكيم عزواني^{1*}، أ.د. سامية داودي¹ جامعة مولود معمري تيزي وزو ، azouanihakim3@gmail.com

مخبر تحليل الخطاب

² جامعة مولود معمري تيزي وزو ، samiadaoudi@yahoo.fr

الإرسال: 2024/07/10

القبول: 2024/11/24

النشر: 2024/12/15

الملخص:

أدت ممارسات الاستعمار الفرنسي في الجزائر إلى إحداث تغييرات في الحياة السياسية الاجتماعية والثقافية أثناء وبعد الحرب التحريرية وهذا أثر في تطوّر الإنتاج الأدبي وتزايد عدد الكتاب الجزائريين الذين يكتبون الرواية باللغة الفرنسية.

يعدّ مولود معمري من الروائيين الجزائريين الرواد حيث كتب روايته الأولى الشهيرة الربوة المنسية La colline oubliée في سنة 1952، يصف فيها طرق عيش سكان منطقة القبائل في هضبة معزولة ويذكر تقاليدها وعاداتها وقيمها، مع الإشارة إلى جانب الفقر، الجوع والبؤس الذي عانى منه الإنسان الجبلي في تلك الفترة الحساسة (1939).

يتناول الكاتب تقاليد السكان خصوصا الطقوس الفلاحية وهذا لتمثيل ثقافة عريقة ضاربة في التاريخ، ونقل قيم الأجداد، فقد سعى مولود معمري لترسيخها ونشرها والتعريف بها للقارئ الأجنبي عبر الرواية، تركز روايته الربوة المنسية على الثيمات المرتبطة بالجماعة من أجل مصارعة الطبيعة والمحافظة على الهوية.

الكلمات المفتاحية: الفضاء الجغرافي؛ الهوية؛ الطقوس الفلاحية؛ القرية

The Agricultural Rituals and Spatial Production in "The Forgotten Hill"

*المؤلف المرسل.

Abstract:The French colonial legacy in Algeria has left remnants that led to transformations in political, social, and cultural life during and after the liberation war. This had an impact on the evolution of literary production and the increasing number of Algerian writers who write novels in French. Among the pioneers is Mouloud Mammeri with his famous novel “The Forgotten Hill”, published in 1952, where the author describes the ways of life of the inhabitants of the Kabyle region in an isolated pastoral setting, mentioning their traditions and values, while also alluding to the aspects of poverty, hunger, and misery that the mountainous people endured during that sensitive period (1939).

The author describes the traditions of the inhabitants, especially the agricultural rituals, as a representation of a deep-rooted culture steeped in history. In line with the values of the ancestors, Mouloud Mammeri worked to disseminate and introduce these traditions to the foreign reader through the novel.

His novel “The Forgotten Hill” focuses on themes related to communal solidarity in the struggle against nature and the preservation of identity

Key words: geographical space; identity; agricultural rituals; village.

1- مقدمة: إنّه لمن المؤكد اليوم أن الأدب المغاربي الفرنكفوني وليد سياق سوسيو تاريخي ناتج هو كذلك — أي هذا السياق — عن الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الذي فرض ثقافته على شعوب المنطقة، فتأثر الأدب بهذه الثقافة خصوصا في الجانب اللغوي، حيث كان الكتّاب يكتبون باللغة الفرنسية للدفاع عن حقوق ذويهم وأرضهم المنهوبة تحت ذريعة المهمة الحضارية التي سوقت لها السلطات الفرنسية آنذاك.

تؤكد هنا الباحثة (سيقارة مرتا/ seggaramarta) في هذا الشأن « أن تطور الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية حدث سياسي بامتياز وعمل مقاومة ونضال ضد ممارسات الإدماج المنتهجة من قبل الإدارة الفرنسية، وأن هذا الأدب في جوهره يشكل جزء من النضال السياسي لهؤلاء الكتّاب»¹. في الجزائر تحديدا حيث كان الاستعمار شاملا وماحيا للهويّات ومكبّلا للحريّات، بدأت تظهر الكتابات منذ ثلاثينات القرن 20 إلا أنّها كانت مجرد

تصوير شكلي للواقع وفي أفضل الحالات تدعو للاندماج مثل بعض نصوص مدرسة الجزائر التي كان يكتب فيها الأديب الشهير ألبير كامو.

ثم يأتي الجيل الثاني مع مطلع الخمسينات أو ما يسمى أدب ما قبل الكفاح ويتسم هذا الأدب بوصف أدق تفاصيل الحياة اليومية للسكان الأصليين ، ويتميز كذلك وهذا ما يهمننا بالالتزام بالقضية الوطنية والعودة إلى الأصول حسب تعبير عبد الكبير خطيبي.²

لقد وظّف الكتاب في متون رواياتهم مشاهد يؤس الشعب الجزائري مع مخطط خلفي وثائقي معزز بوصف عادات وتقاليد السكان خاصة في الأرياف وهذا لإظهار اختلافهم عن الكولون والفرنسيس عموماً.

وفي الجانب الجمالي تبني الروائي الجزائري المذهب الواقعي والذي يسعى بكل أمانة ووفاء لتصوير الحياة الواقعية للجزائريين ، وقد أراد الكاتب الجزائري إيصال رسالته عن حالة شعبه للقارئ الفرنسي هناك وراء البحار.

كما بدت هذه الكتابات شهادات فعلية معطاة من طرف مواطن جزائري من داخل المجتمع المهمش ، وهذا لتفنيد مزاعم الاستعمار التي تمثل الشعب الجزائري " أهالي متخلفين " خارجين عن التاريخ والحضارة الإنسانية.

وكان الرهان الأكبر للفن الروائي آنذاك هو إنتاج خطاب مضاد للسياسة الكولونيالية الإدماجية السالبة ، ومحاولة إعادة كتابة التاريخ لاستعادة الذاكرة الجماعية ، الهوية ، الثقافة وقبل كل هذا الأرض بكل ما تعنيه من رمزية.³

يكتسي الفضاء في كل البلدان المستعمرة « قيمة ثقافية وسياسية أكثر من أي بلد عادي ، لأنه ركيزة لتحديد الأمة ، والهوية خصوصاً وبهذا المعنى فإن الفضاء الجغرافي للأمة هو فضاء معلمي »⁴

هذا الفضاء المقدس الذي حاربنا من أجل تحريره ، هذا الفضاء الذي يرسم هوية وطنية ، وأي كائن بهذا المنطق يتحدّد انطلاقاً من المكان الذي يطالب به ، ولكن بأي لغة ، وهذه المفارقة عويصة ، سيوصف بها الفضاء الثقافي الجزائري ؟ ، فهناك من يعتبر اللغة الفرنسية لغة المستعمر والعدو التي تسلب وتمحي صورة هذا الفضاء ، في الحقيقة لم يكن الكتاب في الخمسينات يملكون الخيار خاصة جيل مولود معمري الذي درس اللغة الفرنسية فقط لأسباب قهرية حتماً.

يقول معمري: «كان حتما مطلقا على كُتّاب جيلي إن يدخلوا في الأدب الفرنسي بطريقة تجعلهم يذوبون في الديكور ، وكان لزاما القيام بهذا بكلمات متداولة يجب التخلي عن هذه الخصوصية لاستدراك واللاحاق بالعالمية والتي كانت في الواقع خصوصية الآخرين⁵» .

تسجّل روايات مولود معمري في الحركة الأدبية المنبثقة في الخمسينات مع محمد ديب ، مولود فرعون ، مالك حداد ، كاتب ياسين ، وكانت المهمة الأساسية لهؤلاء الرعيل الأول من الكُتّاب هي التنديد بالاستعمار الفرنسي الذي طمس تاريخ الجزائريين وجعلهم مجرد أهالي في ارض أجدادهم . كما أكد هؤلاء الكُتّاب على فضاء هو يتهم عبر الخطاب الروائي الواقعي. لقد استند معمري في وصفه لواقع الشعب القروي في الربوة المنسية إلى تعداد مختلف عاداته وتقاليده العريقة الضاربة في جذور الأرض. وحاول إبرازها وتسليط الضوء عليها في كل العالم عبر الفن الروائي وكذا التعريف للقارئ الغربي بالفرد الريفي في الجزائر وثقافته الأصلية والمليئة بالقيم التراثية ، هذه الثقافة المنبثقة من الريف حيث صفاء اللسان والفكر والأرض.

لكن فضاء الريف هو فضاء رغبة الدخول في الحداثة أكثر من الأوربي نفسه أي أنّ هناك "رغبة أيديولوجية قوية" لدى إنسان العالم الثالث هناك كذلك بعد تاريخي بحث لهذا الفضاء (الريف) و "الأرض" بالمعنى الباشلاردي ليس لها تاريخ لكنّها تتحكم في الفضاء الأمومي ويمكن تمثيل هذا بالتعبير الأرض / الريف / القيم التراثية⁶ .

إن هذا الفضاء الأم ، الريف أو الجبل ، هو مكان الشرعية التاريخية لأنّه يمنح الهوية ويحتضن الثورة ويكتب تاريخ الجزائر الحديث. ونرى كيف أن الخطاب الحضري الإيديولوجيا لا يستغني (لكي يكون موثوقا) عن هذه الشرعية التي يجدها في تواجده التاريخي خارج المدينة لكن الرواية تندد بهذا الارتباط بالواقع وبالتالي يحدث الالتباس بين الأرض والفضاء الأمومي والتاريخ ، ومهما يكن فإنّ أحد هذه العناصر لا تقصي الأخرى بل بالعكس فإنّ الفضاء الأمومي غالبا مكان الديمومة التي تسبق التاريخ ويحيا من بعده.

والمثير في هذه القضية والذي قد يعتبر فكرا رجعيا لدى الحداثيين هو رفض الفكر الديني الشمولي الدخول في الحداثة والعيش مثل الغرب ، وهذا موقف من التاريخ... ووظيفة التاريخ الأساسية هو منح الهوية ، فلا يمكن أن تبنى الهوية دون جذور تاريخية ، إن المطالبة بهوية محدّدة انطلاقا من تاريخينا وثقافتنا وليس من فكر الآخر هو فعل تاريخي مسترجع لاحقا من الرواية على شكل تيمة الأصالة / الحداثة. أو الفضاء الأم / فضاء المدينة.

بين المدينة ذات الزمن التاريخي الخطي والفضاء الأمومي المتصل بالزمن الدائري تترنح هوية الجزائري وتسعى لإثبات نفسها. فما هو الفضاء الذي يرسمه الزمن الحلقي الخاص بالإنسان القروي المتصل بالأرض مثل أهل تاسقة في الربوة المنسية؟..

2. الحرب وتفكك الفضاء: أحداث الربوة المنسية تدور أساسا أثناء الحرب العالمية الثانية ونعلم مدى تأثيرات هذا الحدث العظيم على المجتمع الجزائري حيث جعل رجالا لم يخرجوا قط من قراهم ، يواجهون رجالا آخرين وفي قارات أخرى ، لقد التزموا لأول مرة بثقافات أخرى ما جعل البعض يقارن والآخر يقلد ، وكل واحد كيف احتك بهذه الحضارات المختلفة وهذا ما خلخل وكسر الفضاء المغلق ، والقرية "تاسقة" لن تفلت من هذا التحول الكبير رغما انعزالها الجغرافي.

إنّ الحرب مدمرة وستترك أثارا وخيمة على أهل الربوة وسيكسر ما كان بضمن استمرارية الثقافة بين الأجداد والشباب. أعراض المشكلة تبدأ تظهر لكنّها في الحقيقة أعمق من مجرد صراع أجيال. لقد كانت الظروف التاريخية في جلّها بائسة وملغمة: الشباب يرحلون إلى فرنسا من أجل الرزق ، والقرية تبقى ناقصة خصوصا في "ثاجماث" أين غابت الحكمة والكلمات الرزينة للكبار. «في كل زاوية يطغى الحزن والشعور بالإذلال وكأنّ الناس فقدت ذوق الحياة»⁷.

وهنا يأسف كبار القرية على هجران القيم الأساسية لماض عريق ويسمون هذا باللعنة ، واللعنة تستدعي التوبة قبل مجيء الخراب الكامل ، لكن الشباب لا يهمهم العالم القديم فمقران ومناش مثلا يأسفون على العيش على هامش التاريخ والزمن ، أي بمعنى تاريخ وزمن الحضارة كما درسها هؤلاء الشباب في المدرسة الفرنسية وليس كما يراها الآباء. في الربوة المنسية ممثلة في الطقوس والعادات الفلاحية والاقتصادية الراضخة للزمن الدائري المشكل إذن أعمق من مجرد اختلاف أجيال. «لقد كان أبي يشعر جيدا أنه بيني وبينه يوجد أكثر من فارق أجيال إنه اختلاف ثقافي كامل»⁸.

يتحسّر كذلك الإمام على محاكاة الشباب لعادات الفرنسيين ، ويتساءل الولي: لماذا تسبب صراعات مجانيين حرمان الأمهات من فلذة أكبادهن ونسائنا من أزواجهن الشباب؟ ويدعو: «أعد إلى طرقات تاسقة أحسن ايبوذران ، أكلي ابن مالك ، ازواو ، قاسي اجعل موتي لا يأتي حتى أراهم. لكن ما إن يكونوا هنا ، امحني لان العالم يا سيدي عيد الرحمن لم يعد كما تركته ، الجيل مدنس من كل جهة ، والأبناء.... قد ادخلوا عادات لم يعودوا يتبعوا القوانين سيأتي يوم لن يتحدثوا لغة آبائهم»⁹.

هنا بأسفامام القرية على رحيل شباب تاسقة للمشاركة في الحرب العالمية الثانية لصراع القوى العظمى ، ويدعو الولي الصالح سيدي عبد الرحمن أن يعودوا سالمين إلى أهاليهم ويعمروا أمة القرية.

لكن الإمام لا يتمنى العيش بعد ذلك لأنّ الشّباب قد تغيّر وتأثّر بالثقافة الفرنسية وهذا سيفكك هذا القطب الأحادي أي المجتمع المقنن المغلق الذي كان يعيش في زمن ثابت خارج التاريخ. يفتتح معمري رواية الربوة بالإشارة إلى فصل الربيع وينهيها بفصل الشتاء القارس في أعالي جبال جرجرة ، وتسج كل الرواية وفق زمن الفصول (فصول السنة الفلاحية) التي تسير حياة الفلاحين والقرويين في الجبال والهضاب وهذا العالم الريف حيث المشاكل الاقتصادية تستوجب تنظيم الفضاء واحترام القوانين من أجل الاشتغال المتسق للجماعة. إنّ المجتمع الفلاحي ذو التضاريس والمناخ القاسيين قد شكّل طرق ورسم أساليب تفكير وحدّد طريقة خاصة لإدراك العالم ، فالتقاليد تضمن استمرار القيم التي تقوّي العلاقات الاجتماعية.

3- الطقوس الفلاحية وإنتاج الفضاء: إنتاج الفضاء هو أنّ صيغة الإنتاج تنظم وتنتج (في نفس الوقت مثل بعض العلاقات الاجتماعية) الفضاء والزمن أي الفضاء الاجتماعي هو إنتاج اجتماعي وهكذا فإنّ الفضاء المنتج ينفع كأداة للفكر وكذلك للسلوك كما أنه وسيلة للتحكم وبالتالي للهيمنة والقوة.¹⁰

ويتميّز سكان الجبال والهضاب بتمسكهم بالتقاليد الفلاحية العريقة لان هذه المجتمعات قريبة ولصيقة بالعارض وكل شيء متصل بحميمية النباتات والحيوانات والنّاس ، كل شيء مثل أسطورة العودة الأزلية للزمن مثل صورة النّاس الذين يحيون طقس الأجداد القدماء الذين لا يزالوا يحرسون الجبال ! وهكذا فكل أعمال الحياة اليومية للريفي كالحراث وجني الزيتون والحصاد ...كلها مرتبطة ومنظمة عبر إيقاع فصول السنة. يقول السارد في الربوة: «يتواصل الجو الجميل طيلة قرابة شهر مجددا: الخريف هذه السنة كان ثقيلًا جدا ، وهذا ما سمح لأبي بتجفيف آخر حبات التين التي ظن في أول عاصفة رعدية أنه فقدوها ، وتحت ذريعة السهر على الجني والتجفيف السريع قبل عودة الأمطار الكبيرة وهذه المرة لمدة طويلة كنت انزل كل مساء مع عزي إلى حقلنا أعفير¹¹ ...»

يتحدث هنا مقران بطل القصّة عن لطف فصل الخريف رغم ثقله ، لانها تفتح الفرصة لوالده بتجفيف حبات التين وكم كانت جد ثمينة في تلك الفترة التاريخية (الثلاثينيات)

لضمان المعيشة والقوت اليومي خاصة في الشتاء القارس والممطر والمثلج بدون رافة في تلك التضاريس الوعرة .

الفصول إذن وطقوسها وعاداتها المقدسة التي تشكل الفضاء والزمن انسجاما معنا ، رؤية خاصة للعالم ونوع من الاستمرارية او الديمومة في الوجود كما يقول جان سيرفي: «ان طقوس الحقول ، طقوس العبور ممزوجة من الحرث إلى الحصاد لان الإنسان وجد توازنه بتصميم موضعه في العالم وبصنع موضع للعالم في فكره اليومي ، وفي أبسط أعماله»¹². ورغم كل الظروف والالتباس التي مر بها أهل الربوة كان لا بد عليهم دائما الاستمرار في خدمة أراضيهم وممارسة أشغالهم في حقولهم ، ليس فقط تنظيم الزمن كما قلنا لكن لإحياء طقوس الأجداد كذلك .

«رغم الالتباس الكبير الذي كانت عليه كل الأشياء والشك الكبير الذي كان عليه كل الرجال ، كان لا بد من العيش أما في ما يخص جني الزيتون الذي حان وقتها الآن فإن كل أهل تاسقة عادوا إلى نفس العادات العريقة التي كان يمارسها آبائهم منذ الأزل»¹³. الإنسان الريفي في منطقة القبائل بوجه خاص مرتبط أشد الارتباط بالأرض ويقدّس تربتها وأشجارها بل حتى المطر أبدع له اله أنزار .إنّ الأرض تعتبر كائنا حيا حقيقة وتتبع نفس حلقة التطور للإنسان ، إنها تمثّل بطن العالم من حيث تأتي الحياة ، مثل المرأة ... «نجد منذ الكلمات الأولى هذا الربط المقدس بين الأرض والمرأة: إن الربيع عندنا لا يدوم...»¹⁴ كتاب معمري فعلا يحمل ثقافة الأرض المنقولة عبر المرأة ، والمرأة تبقى كحضور رمزي إنها حارسة التراث الثقافي وتتمتع بامتلاكها علاقة عميقة مع الأرض.

والزمن يتبع إيقاع فصول السنة أو ما يسمى أبواب السنة tibburaussgegass والنشاطات المتصلة بها. إن الأرض عضو حيّ ، إنها تجسّد وعي الكون المحدّد بالحركات الدائرية الأرض في باطن السماء الذي يتحكم في إيقاع الحياة والطبيعة الأرضية¹⁵ . وكما أشرنا في الإشكالية فإنّ الزمن الدائري الذي يفتح السنة الكاملة يتميّز بالطقوس ، صحيح أنّه هناك دائما الزمن الحاضر لكن هناك كذلك زمن التاريخ العريق ، زمن غير محدّد البداية .وكان الناس حين يقومون بأي نشاط يحاولون إعادة امتلاك زمن الأجداد ، وهذا بإدامة الطقوس الفلاحية خاصة .جني محصول الزيتون مهم جدّا ، إنه أثنى المحاصيل ، وفي هذا الوقت من السنة يسجّل مرحلة في الزمن الحلقي (الدائري).

إن هذا النشاط المقدّس (جني محصول الزيتون) يجعل الإنسان الريفي ينسي حتى حالته المزرية بل ويستمتع ولا يشعر بالتعب بالمعنى السلبي حيث انه يرى في هذا الجهد شرفا وراحة خاطر .

«لقد هممنا كلنا بارتياح للعمل ، وعندما نعمل ليس لنا الوقت لاجترار بؤسنا باستمرار¹⁶...

«وأثناء أربعه أشهر سندخل كل مساء منهكين بتعب التنظيف»¹⁷

أنّها أوقات مميّزة حيث أنّ الرجال والنساء مجتمعين بحميمية في أشغال جيني الزيتون أنّها علاقة مقدسة وأبدية تلك التي تجمع الإنسان الريفي مع شجره الزيتون ، لها لها من منفعة اقتصادية وكل ما تمثله من رمزيه في المخيال الجمعي للإنسان المتوسط عمومًا فغصن الزيتون يرمز للسلام منذ عصر الملوك الأمازيغ (كان يلف حول رأس الملك).

أنّها مناسبة كذلك أي وقت لجمع محصول الزيتون لتقاسم الطعام حيث يلتف جميع أفراد القرية حول طبق الكسكسي ، وتختتم هذه العادة بحفله ”أورار” حيث تظهر النساء فرحتهن بالمحصول في أبهى حلة ، وقبل كل هذا نود ضرب مثال عن مدى التضحية والجهد الذي يبذله السكان في القرى للوصول إلى هذا الهدف الأسمى (جني الزيتون).

يقول السارد: «وكل صباح قبل شروق الشمس وقبل أن ينادي الشيخ من أعلى المسجد إلى صلاة الفجر ينزل الناس والدواب عبر مجموعات وهم مزينين وصاخبين الطريق الملتوية والصخرية التي تهبط مباشرة إلى الواد النساء يتزين كما للحفلة ومن مجموعه لأخرى يتردد الجرس المدني لمجوهراتهن الفضية الرجال ما زال في زيهم المهني ، واغلبهم يملك بندقية...»¹⁸

نرى هنا كيف أن استثمار الفضاء قد غيّر من سلوك الناس وملبسهم والأدوات التي يحملونها وكذلك نظرتهم للحياة ويبدو العالم لهم بهيجا وواسعا في هذه الأيام المباركة أي أيام أشغال جني الزيتون.

والمقصود بقولنا في العنوان الفرعي إنتاج الفضاء عبر الطقوس الفلاحية هو أنّ فكرة كون الفضاء الجغرافي كواقع أرضي وتمثله السايكوسوسيولوجي لا يشكّل معطى طبيعيا بل هو مثل الزمن أي تحقيق وانجاز جماعي للمجتمعات.

إن إنتاج الفضاء لا يقف على إنبنائه الحسي فقط ولا على الخطوات الاقتصادية لصنع الخيرات بل يترسم في دينامية اجتماعيه وفكرية.

الفضاء إذا ليس واقع ساكن أو معطى مسبق لكته منتوج جماعي يعكس القيم والتمثلات التي ترسمه:

Notion en débat : production de l'espace, martien Adam publié le

18/02/019, revue, geoconfluences

نلاحظ بوضوح تواجد الفلكور عندما يتكلم معمري عن المجتمع القبائلي في الربوة المنسية فيكثر من وصف الطقوس الفلاحية وصف رقص وغناء الرعاة الحكايات والأساطير خاصة طقس عبور الواد من القرويين وهم في طريقهم لجني الزيتون.

« تقريبا كل المعصرات عندنا بعيدة عن القرية ومن الجانب الآخر الربوة ، وكما يجب عبور الواد مرتين : مرة في الصباح للذهاب ومرة في المساء للعودة ، والتيار جد قوي خاصة نحو نهاية الشتاء وكل عام يأكل الواد كما نقول عندنا راعي صغير أو عجوز جد ضعيف...»¹⁹ يحمل الواد في أعماقه كذلك أسطوره العروسة الغارقة فيه يوم زفافها وهي بيضاء مزينة بالمجوهرات لذلك يسمي أهل القرية المكان "ببركة العروس".²⁰

وهناك الكثير من المشاهد التي قد تسمى بالفلكلورية لكنها ليست ملازمة للإطار ولا تثقل الصورة فهناك الفلكلور الذي يستعمل الكليشيات في موقف المشاهد الفضولي ذي الرؤية الأجنبية والذي يحكي للآخرين الأجبيين ، لكنه ليس كذلك موقف مولود معمري ، صحيح أنه يذكر المجوهرات الفساتين البراقة الملونة ، يتكلم كذلك عن رقص ومزامير الرعاة (فرقة موح) وقد تبدو كلها كليشيات ذات بعد غرائبي ، EXOTISME لكن يجب في المقابل الانتباه إلى أنه غالبا تكون هذه المشاهد مدركة من طرف نظرة حاملة عاشقة كمقران حين ينظر إلى عزي وهو حزين على عقمها.

إن أغلب المناظر في الربوة معايشة بعمق وبكثافة من الداخل ، داخل الذهن ، وتحمل شحنة عاطفية قوية وعميقة عمق وقوة ذلك الفضاء العريق.

4 - النظرة الحاملة ومحاولة ربط الفضاء: الأرض (الريف) والمدينة عالمان قد

يتكاملان في بعض الأحيان أي أن ما تحويه المدينة من ثروات وملذات وفرص عمل قد تسهم في مساعدة الريف ، تطوير معيشته (ماديا طبعا) لأنه غالبا ما تلوث فكره البسيط الطبيعي ولغته...

ومن هذا الجانب الثقافي يصعب بل ويستحيل جمع العالمين في انسجام وتوافق محاولة مقران عبور قمة كويلال في أعالي جرجرة انتهت بمأساة موته في الثلج.

« الصدر إلى الأمام لصعود أحسن للمنحدر ، الحقيبة على الجانب حذاءه العسكري الكبير يغطي قدميه هكذا يمشي مقران بخطى ثقيلة في اتجاه قمة كويلال»²¹
مقران إذن يترك أصدقائه داخل المركبة ويهرب خلسة رغم تحذيرات ومحاوله منعه من طرف رفقاته مناش ومدور أنه فعلا مجنون ومستعد للتضحية بحياته من أجل الوصول إلى قرية "تاسقة"

لقد أخذ أحد المسالك الوعرة باكرا في الفجر أو ربما قبل ذلك بكثير لأن الرفاق لا يجدون حتى أثر قدميه في الثلج...
«لا نجده في أي مكان ، بدون شك قد غادر نحو القمة حيث من هناك يمتد بلاد الزواوه ، أجداده»²²

رغم هذه المأساة أي اختفاء البطل مقران ثم موته المفجع إلا أن مولود معمري يشير بلطف وخفة إلى مدى شساعة بلاد القبائل انطلاقا من قمة كويلان في أعالي جرجرة العريقة وانطلق إلى السواحل والهضاب والوديان...

عودة إلى الفضاء الأم بفقدان مقران حياته في مشهد اليم ومذهل لكن موت البطل سيؤدي كذلك إلى إعادة وصل الوحدة الضائعة وربط الفضاء بين الهضاب والقرى.
حمل النعش من طرف الناس من قرية لقرية يقوي العلاقات الاجتماعية ويمسح الحدود في هذا الحدث الجلل ويبني الشراكة والتآزر بين الناس

« وهكذا يمرر القرويون النعش من إقليم إلى إقليم حتى يلتقوا أهل تاسقة...»²³
وأخيرا يصل الجميع إلى قرية تاسقة نحو غروب الشمس ، وفي الليل يسهر حول الناس طلاب زاوية سيدي عبد الرحمن ويرتلون القرآن الكريم وفي الغد في جو مهيب وسط مقبرة القرية.

يمتلئ الفضاء ويكتسي رداء أقداسة لهذا المقام ويجعل الجميع ملتفين ومتآخين حتى وان كانت المناسبة حزينة

ومع هذا الحدث الأليم الذي اثر كثيرا على أصدقائي مقران خصوصا مناش رفيق الدرب سيتحول الفضاء إلى إطار فارغ يعج بذكراتي في الماضي الجميل مع مقران.
«مناش يفكر ما إذا كان سيرحل حالا ، لقد كانت الأيام تبدو له طويلة جدا في هذه الزاوية من الأرض حيث الطرق ، البلاصات ، الجدران ، الأصوات ، كل شيء يذكر بمقران»²⁴....

والدة مقران كذلك متأثرة وكل صباح تطل من النافذ وتتأمل لساعات طويلة قبر مقران ، لكنها لا تستطيع الخروج من البيت ، لذلك توكل والده موح (راعي العائلة المتوفي بالتفوييد) لإطعام المساكين في المقبرة من أجل سلام روعي ابنيهما.²⁵

تصعبشروط الحياة أكثر فأكثر على أهل الربوة وفي كل القرى والقبائل وكل الجبال البؤس يعم كل مكان ويدفع الرفاق للهجرة.

«في أورير ، في تاسقة ، في كل القرى ، كل قبائل الجبال فان الأمور لم تعد على ما يرام».²⁶

إبراهيم تثقل عليه الديون ولم يعد قادرا على تسديدها لذلك يقرر الرحيل إلى الصحراء بحثا عن العمل تبقى "سكورة" وحيدة في البيت قلقه على مستقبل أولاده.

أما مناش سيرحل إلى الحرب بكل مرارة ، انتهى زمن الأحلام وزمن البراءة ، تاسقة خالية ، الجميع يريد الرحيل حتى ناغني والشيخ سيغادران إلى الأبد.²⁷

تبدو الأشياء والأمكنة والأفراد في ذوبان مستمر وكأنها سائرة نحو الاضمحلال ، أنه عالم تعيس يفرق الأصدقاء ويرمل النساء ...

مناش وإبراهيم قبل الرحيل يقرران توديع مقران للمرة الأخيرة يدخلان إلى المقبرة ، إبراهيم يرفع يديه للدعاء ومناش يقترب إلى أمام قبر مقران ، أنه الوداع الأخير والدموع تغمر عينيه.

« ابقى أنت ، يقول له ، إنك لست المنهزم بما أنك رحلت وأنت محارب... وفينا جميعا أنت الذي ظفر بالنهاية الجميلة ، حياه بدأت في " تاعساست " لابد أن تنتهي في "كوبلال" ... أنت المنتصر كذلك لأنك تركت "عودة" (اسم ابن مقران) ستبقى أنت وفيّ للأماكن حيث عشنا معا حلما المشترك.... أقول لك وداعا؟ وداعا إلى اليوم المقبل حيث وبالتأكيد روعي ستجد روحك وروح عزّي ، ايدير وكو لإعادة بناء تاعساست في عالم لا يوجد فيه العذاب والعراقيل ، وداعا مقران».²⁸

المكان يهوي إلى قاع سحيق ويتلاشى كالسحاب ويحمل معه كل ذكريات الطفولة ، ليس هناك أي إمكانية للعودة إلى الماضي ، لقد حاول مقران خلق وفاق مثالي طوباوي بين المدينة والريف حيث ولد وربط الأفضية ولو رمزية لكنه فشل ، إلا أن صديقه مناش يرى في هذا الفعل الشجاع انتصارا عظيما ، فالموت في أعلى قمته في جبال جرجرة هو أعلى درجات التضحية للعودة إلى الأرض الأم وتثبيت الهوية الأصلية.

كما يعتقد مناش جازما أنّ الأرواح الحبيبة هنا ستلتقي في العالم الآخر وستعيش في نفس الأمكنة المقدسة وفي جنه لا عذاب فيها.

المكان يأخذ صبغة أسطورية خالدة حتى وان مات الإنسان ستخلد روحه إلى الأبد في الأمكنة المقدسة في الحياة الفانية حيث ولد ومات.

5. خاتمة: نطاق البحث في مسالة الفضاء الروائي جد واسع ومتنوع ، من الحسي إلى المجرد تتشكل كل أشكال فضائيه ، كما قد يأخذ الفضاء بعدا رمزيا مثل "ناعاسات" اي الحارسة التي تشرف على كل أرجاء القرية ، بل وتعلو حتى مأذنة المسجد لها ترمز من قداسة وصفاء وأخوة بريئة بين الشباب...

يتخذ الفضاء كذلك شكل وسط طبيعي مثل حقول الزيتون والطريق والوادي... كما قد يكون ذا شكل هندسي خاص ويستدعي سلوكا معيناً مثل بلاصة "ثاجماث".

الفضاء الروائي إذا له وظائف وأشكال وبالطبع دلالات متعددة ، فالفضاء في الرواية أكثر من مجموع الأمكنة الموصوفة أو المذكورة....

ويمكننا القول في النهاية إن الفضاء الروائي يترجم نظرة العالم ومحاولة من الكاتب بيعث الحياة والحركة في هذه الربوة المعزولة عن التاريخ ولو بنهاية مأساوية إلا أنّ الأمل والإيمان بالعودة إلى الفضاء المقدسي يبقى راسخا حتى بعد الموت أو بتورينه للأبناء (ميلاد/عودة) لمواصلة المشوار وتميرها للأجيال إلى الأبد أي العلاقة الخالدة بالأرض الأم.

رأينا إذا كيف أنّ الفضاء ليس فقط هو المكان الذي تجري فيه المغامرة المحكية لكن احد العناصر الفاعلة في تلك المغامرة نفسها ، وهكذا يغدو المكان ضروريا للسرد كي ينمو ويتطور ، فالحدث الروائي لا يمكن تقديمه إلا في معطيات زمانية ومكانية ومن دون هذه المعطيات سيستحيل على السرد أن يؤدي رسالته الحكائية.

كما يرتبط الفضاء الروائي بمكونات أخرى في النص وفي أولها علاقته بالشخصية ، حيث أنّ ظهور الشخصيات وتطور الأحداث يساعد على بناء المكان وقد مثلنا لذلك بالطقوس الفلاحية لسكان الربوة ، وكيف أنّ نشاطاتهم هذه هي التي ترسم الفضاء وتؤسسه وتمنحه رمزية خاصة في المخيال الجمعي ما يوطد أكثر التسيج الاجتماعي ويرسخ الهوية الثقافية ، وقد برع مولود معمري حسب رأينا في وصف العادات والتقاليد المحلية لسكان الربوة والكشف عن الواقع المرير في تلك المناطق المعزولة وكيف ربط الكاتب بين الجغرافية الجبلية القاسية و الحقبة التاريخية الاستعمارية التي سعت لمحو الشخصية الجزائرية.

6- مصادر البحث ومراجعته:

1. AbdelkebirKhatibi, Le roman maghrébin, Ed François Maspero, 1968.
2. BendjlidFaouzia, Le roman algérien de langue française, Ed Chihab, 2012.
3. BendjlidFaouzia, L'écriture en Algérie est tributaire de l'histoire, revue inculture.
4. Charles Bonn, Problématique spatiales du roman algérien, Ed, E.N.L, Alger.
5. J.Servier, Les portes de l'année, Robert Laffont, Paris, 1962.
6. Jean Yves martin, Une géographie critique de l'espace du quotidien... Artacula journal of urbanreseach, 2006.
7. Makilam, Signes rituels magiques des femmes kabyles.
8. Mouloud Mammeri, La colline oubliée, Ed folio Gallimard, 1992.
9. Segarra Marta, Leur pesant de poudre, romancières francophones au Maghreb, paris, Ed l' Harmattan, 1997.

7- الهوامش والإحالات:

- ¹ - Segarra Marta, Leur pesant de poudre, romancières francophones au Maghreb, paris, Ed l' Harmattan, 1997, p 15.
- ² - AbdelkebirKhatibi, Le roman maghrébin, Ed, François Maspero, 1968, p 47.
- ³ - Bendjlidfaouzia, l'écriture en Algérie est tributaire de l'histoire, revue inculture, p02.
- ⁴ - Charles Bonn, Problématique spatiales du roman algérien, Ed, E.N.L, Alger, p 09.
- ⁵ - BendjlidFaouzia, Le roman Algérie de langue française, Ed Chihab, 2012, p 53.
- ⁶ - Charles Bonn, Problématique spatiales du roman algérien, p 86.
- ⁷ - Mouloud Mammeri, La colline oubliée, Ed folio Gallimard, 1992.
- ⁸ - Ibid, p 30.
- ⁹ - Ibid, p 94.
- ¹⁰ - Jean Yves martin, Une géographie critique de l'espace du quotidien... Artacula journal of urbanreseach, 2006.
- ¹¹ - - Mouloud Mammeri, La colline oubliée, p 45.
- ¹² - - J.Servier, Les portes de l'année, Robert Laffont, Paris, 1962, p 58, 59.
- ¹³ - - Mouloud Mammeri, La colline oubliée, p 75.
- ¹⁴ - Ibid, p 13.
- ¹⁵ - Makilam, Signes rituels magiques des femmes kabyles, p 18.
- ¹⁶ - Mouloud Mammeri, La colline oubliée, p 75.
- ¹⁷ - Ibid, p 76.
- ¹⁸ - Ibid, p - 78.

¹⁹ - Ibid, p - 76.

²⁰ - Ibid, p - 77.

²¹ - Ibid, p - 162.

²² - Ibid, p - 162.

²³ - Ibid, p - 172.

²⁴ - Ibid, p - 175.

²⁵ - Ibid, p - 172, 173.

²⁶ - Ibid, p - 205.

²⁷ - Ibid, p - 217.

²⁸ - Ibid, p - 220.